من تراب الطريق (٣٨٣) المنقذ من الضلال!(*)

بين الإمام ، حجة الإسلام ، أبى حامد الغزالى (١٠٥٩ / ١١١١ م) وكتابه : «المنقذ من الضلال» ، وبين الدكتور مصطفى محمود وكتابه : «رحلتى من الشك إلى الإيمان» ـ قرابة ألف عام .. سوف تشعر حين تقرأ : «المنقذ من الضلال» ـ أن الدكتور مصطفى محمود قد استقى منه الفكرة ، وسار قريبا من دربه حتى خرج بمحاولته من هواجس الشك إلى أمان اليقين ..

كان الغزالى وتجربته فى المنقذ من الضلال ، حاضرين فى ذهنى وأنا أتابع رحلة الدكتور مصطفى محمود وما عبر به عنها .. رويت لك فى (٨/ ١١/ ٢٠٠٩) بعضا منها ، ثم رأيتنى مشدودًا إلى الإمام الغزالى وتجربته فى كتابه الأسبق بنحو ألف عام : «المنقذ من الضلال».

فى تصدير طبعة هذا الكتاب سنة ١٩٧٣ ، كلمات رشيقة للأستاذ أنيس منصور ، يقول فيها عن الكتاب : «إننى أقرأ فيه أجمل وأروع ما كتبه الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى كتابه المشهور «مقال فى المنهج» .. فهو يبدأ بالشك ثم ينتهى إلى اليقين . ولكن الغزالى أبسط وأروع وأعمق .. تجرد من كل شىء ليؤمن بكل شىء .. نزل إلى كل بحر ، وطاف كل محيط ..

(*) المال ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٩

ليرسو على بر الأمان بالعلم والإيمان .. لقد هدانى الغزالى ، وثبّت الأرض تحت قدمى ، وثبّت الدنيا كلها أمامى .. هنا السماء وهنا الأرض . هنا العقل وهنا النقل . هذا الكتاب وهنا الحديث وهـنا الاجتهاد» .

أريد اليوم أن أحدثك عن الرحلة التى قطعها الإمام الغزالى من قرابة ألف عام .. غاص فى بحور ولجج ، وطاف بين العلوم والأفكار ، مدفوعا بأشواق قوية لمعرفة الحق والخروج من هواجس وتخبيلات الضلال إلى شاطئ وأمن اليقين !

يفصح الغزالى فى بدايات الرحلة ، أن اختلاف الناس فى الأديان والملل ، بحر عميق غرق فيه كثيرون ، ولم ينج إلاّ قليلون . وأنه منذ عنفوان شبابه خاض فى لجج هذا البحر ، وتوغل فى كل اتجاه ، وتفحص فى عقيدة كل فرقة .. دافعه التعطش إلى إدراك الحقيقة .. بدأ بالتخلص من قيود التقليد والخضوع للموروث ، فكل مولود يولد على الفطرة ، ويتابع ما يتلقاه من والديه فينشأ على دينهما ، إلاّ من يطلب الحقيقة ويسعى جاهدًا لاكتشافها ..

فتش الغزالى فى العلوم ، فقال لنفسه فى البداية إن الأمـل فى المحسوسات ، فهى التى تقيه مغبة الغلط ، ولكنه حين استعرض ما صادف إبراهيم الخليل عليه السلام حين استبان أن الكواكب والقمر والشمس جميعها تأفل بعد بزوغ ، أدرك أن الثقة بالمحسوس قد تتعلق بفراغ أو أوهام ، فتبطل الثقة إلاّ بالعقليات .. فالعقل هو الذى كذّب

لديه ظنّه فى المحسوسات .. والضرورات العقلية أوثق للوصول إلى الأمْن واليقين .

ولكنه نظر فوجد المتطلعين إلى نور العقل ، قد تفرقوا بين أربعة فرق : المتكلمون ، والباطنية ، والفلاسفة ، والصوفية .. فأى من هذه الفرق أهدى سبيلا فى الوصول إلى الغاية .. لاحظ أن علم الكلام الذى درج عليه المتكلمون ـ علم وافٍ بمقصوده ، ولكنه غير وافٍ بمقصود الغزالى فى الاهتداء إلى المذهب الصحيح بلا تشويش .. فأهل الكلام قد صرفوا جهودهم لبيان مناقضات الخصوم ومقارعتهم بلوازم مسلّماتهم ، وهذه المقارعات لن تكفيه للخروج كليةً من ظلمات الحيرة .. فهل تفى الفلسفة والمتفلسفون فى تحقيق مراده ؟! .. بذل الغزالى غاية جهده لدراستها لنحو ثلاث سنوات ، فخلص إلى أن معظم ما اطلع عليه منها فيه خداع وتلبيس ، افترقت سبله بين الدهريين والطبيعيين والإلهيين ، فرأى الدهريين يزعمون أن العالم لم يزل موجودًا بنفسه بلا صانع ، والطبيعيين برغم بحثهم فى عجائب صنع الله تعالى وبدائعه ، أكثروا الخوض فى تشريح أعضاء الحيوانات ، فأخذهم ذلك إلى الظن بأن قوة الإنسان العاقلة تابعة لمزاجه ، وتبطل ببطلانه ، وذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة والحشر والنشر والقيامة والحساب ، ولم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب .. فلما ترك هؤلاء وأولاء إلى الإلهيين ، وراجع سقراط وأفلاطون وأرسطاليس ، ثم الإسلاميين كابن سينا والفارابى وأمثالهما ، وجد أن اللاحقين يتبرأون مما رآه السابقون ، ووجد علومهم

قد جرت فى اتجاهات طفق الغزالى يراجعها ويعرضها ، حتى خلص إلى مجمل رأيه فى الفلسفة التى حمل عليها حملة ترى تفاصيلها ـ إن أردت ـ فى كتابه الشهير «تهافت الفلاسفة» ، والذى رد عليه ابن رشد فى «تهافت التهافت» .. ويبدو أن حملة الغزالى على الفلسفة والفلاسفة فى «المنقذ من الضلال» ـ كانت مخافة التأثير على العقيدة التى أراد من رحلته الوصول إليها خالصة مصفّاة .

خرج الغزالى من الفلسفة إلى الصوفية ، وإلى عالم وكتب ومأثورات الحارث المحاسبى والجنيد والشبلى والبسطامى وغيرهم ، ويعد هذا الفصل أجل ما فى كتاب «المنقذ من الضلال» .. فيه أبان حقيقة التصوف الذى انتهى به إلى أعلى درجة فى هذا المضمار .

لن تشبع وأنت تتابع الغزالى فى رحلته الباحثة عن الإيمان اليقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر ، وكيف استقر به المقام بعد بحث عميق وتأمل طويل إلى مرفأ الأمان ، وكيف وجد سعادته فى التقوى وكف النفس عن الهوى ومجافاة الغرور ، وكيف لم يعد يشغل نفسه إلاّ بالخلوة والرياضة والمجاهدة وتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى .

وبعد ، فليس فى وسعى أن أغنيك فى هذه السطور ـ عن متابعة الغزالى فى رحلته الشيقة ، المتأملة الممتعة ، وهو يبحث عن الحقيقة ، حتى اهتدى إلى شاطئ الأمن واليقين .

*****